أيــوب عليه السلام

تشقّق الحديث بين ملائكة الله عن الخلق وعبادتهم ومعصيتهم أو طاعتهم، قال قائل منهم: ما على الأرض اليوم خير من أيوب، إنه مؤمن قانت، ساجد عابد، بسط الله في رزقه، وأَنْسَأ[1] في أجله، وفي ماله حق معلوم للسائل والمحروم وأيامه عبادة لربه، وشكر لنعمائه، وعبادتُه حجة على الأغنياء والمُتْرَفين من خَلْقه؛ فكلهم ظاهر قوله، وصَدّق دعواه.

سمع إبليسُ قَالَتَهُمْ، ولم يكن محجوباً عنهم، أو بعيداً عن ساحتهم، فساءه أن يكُون رجل في الأرض يَعبُدُ الله كما يعبده أيوب، وهَمّه في الأرض إغْوَاءٌ للصالح وإفسادٌ للمؤمن، ووسوسة للطائع المُذْعِن، فخفَّ إليه يغويه أو يُضِله، فوجده امرأً يَمْرَح في مطارف النعمة، ويجول في حقول الثراء، ولكنه لم يُبْطِرهُ الغنى، ولم يغوه المال، فهو أبداً لاهجٌ بذكر ربه، برٌّ بأهله، حَدِبٌ عاطف على عبيده وخدمه، يُطعم الجائع، ويكسو العاري، ويفك العاني، ويبسط وجهه للعافي، ثم هو يردُّ الظالم، ويعلّم الجاهل وينشر العلم والمعرفة بين الناس.

فحاول أن يقترب من قلبه، أو يوسوس إليه وراء أذنه، وأن يُزَيّن له الدنيا ومجاليها، وأن يزهده في العبادة وما فيها، ولكن وجد أذناً صَمَّاء عن الخنا، وقلباً أغلف عن الهوى؛ وَجَدهُ من عباد الله المخلصين، الذين ليس له عليهم سلطان، فكره ما رأى، وحَزَبه ما لقي من أيوب، ثم رجع إلى الله، ووقف منه الموقف الذي كان يقفه منه قبل إن يطردَه من رحمته، ويقصيَه عن سُدَّته، وقال: يا رب: عَبْدُك أيوب الذي يعبدك ويقدِّسُك، ويهتِفُ قلبهُ بذكرك، ويلهج لسانه بتسبيحك، ما يعبدك تطوعاً من نفسه، ولا نافلة من عنده، إنما يعبدك ثمناً لما منحْتَه من مال وبنين، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار، وطمعاً في أن تبقي له ماله، وتحفظ له دنياهُ: ألوف من الغنم والإبل، ومئات من

---

(١) أنسأ: أخرّ.

الأتن والبقر، وعديد من الفدادين[١] والعبيد، وبنون وبنات، وأرض عريضة، وحقول خصيبة!!

أليست هذه النعم جديرةً بأن تعينه على شكرك، وأن تحمله على عبادتك؟! خشية أن يمسها الزوال أو يصيبها الفناء!! فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة، مُشربة بالخوف والطمع.. انزع عنه هذه النعمة، وجرِّدهُ من هذه الثراء؛ فإنك تراهُ وقد خَرس لسانه عن ذكرك، وأعرض عن طاعتك.

قال الله تعالى: إن أيوبَ عبد مؤمن خالص الإيمان، لا يعبدني إلا لما يراه من حق العبادة، ولا يذكرني إلا لما يعرفه من حق الذكر، ذكر وعبادة مجردان عن حب الدنيا، بريئان من المطامع والأغرض.

ولكن، ليكُون أيوب قبساً وهّاجاً في الإيمان، ومثلاً عالياً في الصبر واليقين قد أبَحْتك ماله وعقاره، اجمع لهما جنودك وأعوانك وشيعتك وحزبك وافعلوا بهما ما تريدون، ثم انظروا إلى ما تنتهون.

فنكص إبليس على أعقابه؛ وراح يجمع الشياطين من شيعته وأوليائه. وأوحى إليهم أن الله قد رخَّص له في مال أيوب. يذهب به ويفنيه. وأنه يطمع في أوليائه أن يَصنع كل منهم في الإهلاك نصيبه، ليعود أيوب مجرداً من ماله، ثم يرجع بعد ذلك سليباً من إيمانه.

فانطلقت الشياطين، وفعلت أفاعيلها، حتى أتت على الغنم والإبل، والأتُن والعبيد، والناطق والصامت، والأخضر واليابس، وأصبح بعدها أيوب فارغ اليدين، صِفر الراحتين.

أما إبليس فتمثّل لأيوب رجلاً هِمًّا حكيماً مجرّباً، وقال له: إن النار قد أتَتْ على ثروتك من قواعدها، وقد هلك الزرعُ والضرع، وذهب المال والنَّشَب[٢]، ووقف الناسُ أمام هذا واجمين[٣] مبهوتين، من قائل يقول: إن أيوب ما كان إلا في غرور من عبادته،

---

(١) فدادين جمع فدان: المحراث ـ أو: النير على عنق الثورين للحرث.

(٢) النشب: المال ـ أو: العقار.

(٣) وَجَم: عبس وأطرق وسكت عن الكلام لشدة الحزن فهو واجم.

وضلال من زكاته وصلاته. وآخر يقول: لو أن الله استطاع دفعَ شر وَجَلْب خير لكان أيوب أولى بذلك وأجدر. ومن آخر يقول: إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليشمت به عدوّه، أو يَفْجَع فيه صديقه.

وظن بما ألقاه من خَبَرٍ فاجع، ونبأٍ مروّع، أنه سيزحزح من إيمانه، أو يُفسد من جنَانه، ولكن أيوب كان أقوى إيماناً وأشدّ إذعاناً، واعمرَ بالتقوى قلباً، وأحكَم ما يكون رأياً ولُبًّا. قال: عارية لله استردها، ووديعة كانت عندنا فأخذها، نَعِمْنا بها دهراً؛ فالحمد لله على أما أنعم، وَسَلبنا إياها اليوم، فله الحمد مُعْطياً وسالباً، راضياً وساخطاً، نافعاً وضارًّا، هو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعُ الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، وَيُذلُّ من يشاء، ثم خرَّ لله ساجداً وترك إبليس خَزْيان ينظر!

ولكن إبليس رجع إلى الله يحاول أن يحوك للشر ثوباً جديداً، وَينْسجَ للإغواء رداءً قشيباً[1]، وقال: يا رب، إنَّ أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد، والمصيبة إلا بالصبر، فليس ذلك إلا اعتداداً بمن يعتز بهم من أولاد، وأنه يطمع أنْ يشتد بهم ظهرُه، ويَشتدّ عضده، فيُرَدُّ إليه ما ذهب من ماله، ويرجع ما فقد من ثروته وعقاره، وإن سَلَّطتني على أولاده أفعل بهم ما يَكْرَهُ؛ فأنا موقن أن أيوب سيصيرُ أشدّ ما يكون كفراً وجحوداً، وأعظم ما أرجو منه جهلاً وعِناداً، فلا أَشدَّ من فتنة الولد، ولا أَحْفَظ للنفس من الفجيعة فيهم.

فأجاب الله قائلاً: لقد سلطتك على ولده، ولكنك سوف لا تُنْقِص ذرَّة من إيمانه، أو تَذْهب بقطرة من صبره وعزمه.

انصرفَ إبليس، ودعا إليه شيعتَه وحزبه، وذهبوا إلى حيث يقيم وَلَدُ أيوب في قصر مشيد، بين نعمة ضافية، وَبُلَهْنِيَةٍ من العيش سابغة، فزلزل قصرَهم، حتى تصدّع بنيانه، ووقعتْ حيطانه، وأصيبوا جميعهم، وفنُوا عن آخرهم.

ولما بلغ إبليس ما أراد، ذهب إلى أيوب متمثلاً في رجل يَنعاهم، وقال له: لو رأيت أولادك اليوم قتلى مُضرّجين، هذا مجروح، وذاك مشدوخ، لعلمت أن الله لم يَكافئك بعبادتك، ولم يَرْعك حق رعايتك.

---

(١) قشيب: جديد ونظيف.

فاستعبر وبكى، ولكنه قال: الله أعطى، والله أخذ، فله الحمد مُعطياً وسالباً، ساخطاً وراضياً، نافعاً وضارًّا، ثم خرَّ لله ساجداً. وترك إبليس يكاد يتميّز من الغيظ، ويتمزَّع من الحنَقِ.

ثم رجع إبليس إلى الله يقول: يا رب، لقد ذهب المال عن أيوب، وَفَنِيَ الولد، ولكنه لا يزال في عافية من بَدَنه، وصحة من جسمه، وإنه ليعبدُك، أملاً في أن يعودَ المال ويُرَدّ الولد، ولكن سَلِّطني على جسمه، ورخِّص لي في أن أنالَ من عافيته، وأنا زعيم أنه لو مَسَّه الداءُ، وأنهكه السقم، وأدْنَفَه المرض أن يُهمل عِبادتك، ويخلع ثَوْب طاعتك، ويُشغل بأسقامه عن ذكرك.

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً، صابراً شاكراً، تكون قصته عِبْرَةً للمصابين، وعزاء للمكروبين، وسَلْوَى للمرضى والمجروحين، وليكون أيوب على الدهر المعلم الأول للصبر، والمثل العالي في الإيمان، وليرفع في الدنيا، ذكْرَه، ويُعلي في الآخرة مقامه ـ فقال لإبليس: لقد سلطتك على جسده، ولكن حذار أن تقترب من رُوحه ولسانه، وعَقْله وجنانه، فإن فيها سرَّ إيمانه، ومظهر دينه وعرفانه.

فذهب إبليس في كيدِه، ونفخ في أيوب، فاستحال سقيماً مريضاً، مُدْنفاً عليلاً، ولكنه ما ازداد إلا إيماناً، وما أدّرع إلا صبراً وحَزْماً، وكلما ألحَّ عليه الداء، وتخوّنه[١] السقم ازداد شكرُه وإذعانُه، وتقوّى إيمانه ويقينُه.

* * *

ومرَّت الإيام، وتحدرت الأعوام، وأيوب لا يزال على شَكاته، حتى هزل جسمُه، وذهب لحمُه، وأصبح منقوف[٢] الوجه، شاحب اللون، لا يَقَرُّ على فِرَاشه من الألم؛ ففرَّ عنه الصديق، وجانَبُهُ الرفيق، ورغبت عنه شيعتُه ومَنْ حوله، إلا زوجه الرءوم العطوف. فإنها تحنّنت عليه ما وسع قلبها الحنان، وعُنيت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ورفت عليه بجناحيها، وبسطت له أكناف قلبها، وما شَكَت إلا هموماً تُسَاورها من آلامه، ومخاوف تحذرُها على حياته، ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

---

(١) تَخوَّن: تنَقَّص.

(٢) منقوف الوجه: قليل اللحم أو ضامر الوجه مصفره.

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب، وشق عليه ما رآه من إيمانه ويقينه، وأهمه ما صادف من الإخفاق؛ فجمع أعوانه مرة أخرى، وشكا إليهم ما امتنع عليه من أيوب، وما يستلئم به من إيمان وصبر، بعد أن سُلِّطَ على ماله وولده، فلم يزدد إلا إيماناً وشكراً، وبعد أن سُلط على جسده فما فَتر لسانه عن ذكر الله، وما تزعزع قلْبُه عن الإيمان بالله.

فقالوا له: أين مكْرُك وحيلتُك، وتلطّفك في الوسوسة، وحسن تأتِّيك في الإغواء؟ بَطل كل ذلك في أيوب؟

فقال أحدهم: لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة، فمن أين أتيته؟ قال: أتيته من قِبَل امرأته، فقال: فشأنك في أيوب من قِبَل امرأته، قال: أصبتم الرأي، ولم تجاوزُوا الحق.

وانطلق إلى امرأته، وهي في بعض شأنها مع أيوب، وتمثّل لها رجلاً، وقال: أين زوجك؟ قالت: هو هذا، عميداً[1] وقيذاً[2]، يتضوّر من الحمى، ويتقلب مما ألحَّ عليه من الداء، لا هو ميت فينعى، ولا هو حَي فيرجى.

فلما سمع قولها طمع في إغوائها؛ فأخذ يذكِّرها بما كان لزوجها في صَدْر شبابه، وغضاضه إهابه من صحة وعافية، ونعمة ضافية؛ فأعادتْ لها الذكرى الأشجانَ، وأثارت لديها كَوَامِنَ الأحزان، ثم أخذ يدركها الضجر، وينساب إلى قلبها اليأس.

وذهبت إلى أيوب، وقالت: حتى متى يعذبك ربك؟ أين المال؟ أين العيال؟ أين الصديق؟ أين الرفيق؟ أين شبابك الذاهب؟ وعزك القديم؟ قال: لقد سوّل لكِ الشيطانُ أمراً؟ أتراك تبكين على عزٍّ فات، وولد مات؟ فقالت: هلا دعوت الله أن يكشفَ حَزَنَك، ويُزيحَ بلواك؟ قال: كم مكثت في الرخاء؟ قالت: ثمانين. قال: كم لبثتُ في البلاء؟ قالت: سبع سنين.

قال: أستحي أن أطلب من الله رَفْع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي!! ولكن يخيل لي أنه قد بدأ يضعف إيمانكِ، ويضيق بقضاء الله قلبُك، ولئن برئتُ وأتتني القوّة لأضربنك مائة سوط، وحرام بعدَ اليوم أن آكل من يديك طعاماً أو شراباً، أو أكلفك أمراً أو عناءً؛ فاعزبي عني، حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً.

---

(١) العميد: المريض لا يستطيع الجلوس حتى يُعْمَدَ من جوانبه بالوسائد.

(٢) الوقيذ: الشديد المرضى المشرف على الموت.

ولما رأى أيوب أنه قد أصبح وحيداً فريداً، وقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه، فزع إلى الله، لا مُتسخِّطاً ولا متبرماً، بل داعياً متحنناً، وقال: يا ربّ، إني مَسَّني الضرُّ وأنت أرحَمُ الراحمين. وإلى هذه الساعة كان أيوب قد بلغ غاية الإيمان، وصمد لوسوسة الشيطان، وَادّرَع بصبر عجيب، واحتمل هَمًّا تنوء به الجبال، وبلغ ما أراد الله له: من أن يكون مثلاً عالياً للصبر، ورسولاً من رسل الإيمان؛ فاستجاب الله دعاءه، وأصاخ لشكواه، وأوحى إليه: أن اركضْ برجلك ينفجر لك نبع الماء، فاشرب منه واغتسل به، تعود إليك صحتك، وَتُرَدُّ إليك قوّتك. فما شرب واغتسل حتى اندملت قروحُه، وبرئت جروحه، وصَحَّ جسمه، وصلح بدنه، ونَسَل[1] عنه المرض، وعاد أكمل ما يُرَى صحةً وعافية.

وكانت زوجه قد رقّ قلبها له، وحدبتْ عليه، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه، وقد لزمته من أول مرضه، وكانت من قبل قد شاركته في نَعْمَائه، فرجعت إليه تعاود إصلاح شأنه، والقيام بأمره، فرأت عجباً، رأت شاباً مكتمل الشباب، غضَّ الإهاب، مكتنز[2] اللحم، وافر المنَّة والقوّة؛ فأنكرته بادىء الرأي، ولكنها ما عرفته حتى عانقته، وحمدت الله على ما رَدّ إليه من صحة وعافية، وهو أوفى ما يكون إيماناً ويقيناً.

ثم أوحى الله إليه أن خُذْ حُزْمَةً من القشّ، واضرِب بها زوجك ضَرْباً خفيفاً رقيقاً، رُخصةً لك في يمينك، ورحمة بهذه المخلصة المؤمنة التي احتملتْكَ في مرضك وشاركتك في آلامك، وجازاه الله على صبره فردّ عليه ماله، ورزقه ولداً أضعاف ولده؛ إذ كان أيوب مثالَ العبد المؤمن الأوّاب[3].

---

(١) نسل عنه المرض: ذهب عنه.
(٢) اكتنز اللحم: اجتمع وصلب.
(٣) أواب: مقبل على الله راجع إليه.